حول "فاصلة بين امرأتين" لمحمد زينو شومان
مرفأٌ للشعر ومرفأٌ للحرّية

كأنكّ لستَ من هاتينِ السَّاحةِ والسَّاعة! على الحَلَبات رجالٌ مدجّجون بالتبرّمِ من الآخر، ورُجْعى إلى مساكن الأمس، وملوكُ طوائف، وسياساتٌ تختالُ على سطوح القضايا وعلى الصّدور... وأنت، اعتراضاً وعصياناً، تديرُ قلمك نحو القصيدة وأنوثتها ودُخيلائها وشَعرِها الممتدّ حتى أوّلِ الفجر ونسيمها العليل وبرقها ورعدها أيضاً... تدير قلمك نحو القصيدة / الربيع والقصيدة / الرغبة والقصيدة / الحنين والقصيدةِ / الجَسَدَ المضمَّخِ بالأطياب، وتقول:

"هل في سماء قصيدتي برقٌ ورعدٌ؟

هل ستخضرُّ الرَّغائِبُ بعدما دبَّ الذبولُ بها؟

أيأتي العشبُ / خبزُ الشوقِ/ أضغاثُ الصّبا / ثوبُ الحقولِ / مجاعَةُ الأقلامِ / معجزةُ الربيعِ / زيارةُ الغيثِ الأخيرةُ / صولةُ الأهواءِ / بعضُ خصائصِ النسيانِ / ذائقةُ الحنينِ/ يدي إذا اشتاقت الى نهدِ اليراعَةِ / نفحةُ الأنثى إذا هبّتْ على أنفِ الضُّحى؟"

***

لا! لا! قد أكون ضللتُ الطّريق حينَ قلت إنّك لستَ من هاتين السَّاحةِ والسَّاعة. أنتَ

الخميس ٢٠١٤/٤/١٧، المجلس الثقافي للبنان الجنوبي، حول ديوان "فاصلة بين امرأتين" للشاعر محمد زينو شومان.

ابنُ هذه الأرض وهذه الشطرةِ الزمنيّة الحبُلى بأحداثٍ جُلَّى، وبالغرائب والعجائب. وابنُ هذه الحياة بيوميّاتها ووجوهها الشتَّى المتناغمة المتنافرة، وهذين النعيم والشقاء، وهذه الفضاءات والسلاسل لا في بيئتك وحسب، بل، فوق ذلك، في أعماق ذاتك: "تتنازعني الأضداد / وجهي ينظر نحوي شزراً / قدمايَ كأنهّما قيدان / فمتى تتحرّرُ ذاتي من ذاتي؟" وأنت ابنُ العقل والقلب الذي "وزّعتَهُ لكلّ أبناء السبيل"، وابنُ الأرضِ التي هي "بعضٌ من مواريث السَّلف" والسماوات " التي تمشي الهُوينا بافتخارٍ وصَلَف!" وأنتَ ابنُ ذلك الشغفِ بالبطولةِ الحقّ حين تدّق أجراس الغضب... ولكنّك... ولكنّنا أيضاً كما تقول، أرباب مبالغة في " الكذبِ العربيّ المُباح."

أنتَ على هذه الصورة اللّصيقةِ بالواقع، فما بالي أنظر إليك وكأنّك على سَحَابَةٍ أو بساطِ ريح؟ كان ذلك يا صديقي لأنّ في حدائِقِ قصيدتك، بل في سمائها، موجاتٍ من التخيُّل تتلو موجات، ودخولاً إلى مسارح الدنيا من أبواب مرصودة، ورذاذ كلمات يطوّف فوق سهول الورق ولا يحطّ، وقلمٌ جناحه النبويّ من ريش السحاب كما تقول، وفُلْكُ قصيدة تجنَحُ ولامرافىء كما تقول أيضاً... في حدائق قصيدتك، بل في سمائها، لغةٌ ذاتُ مخابىء وأعماق وأمداء وبحار... هذه كلّها أيضاً قد تكون عالقةً في سماء اللّغة. والأحسن أنّك، على ما طرحت من أسئلة حول الشعر والكلمة والحياة والجسد والخطيئة والعشق والمنايا والزمان، لم تخلُصْ إلى المقرَّر والمُحنّط والتسليم الشائع لأنّه الأسهل، ولم تبهرك الظواهر، وعرفت أنّ إبحارك في اللغة ليس غير مغامرةٍ زادتك ريبةً وأبقتك على قلقٍ:

"لا لن تعود بغيرِ ذكرى الريح

كم أبحرتَ في لغةٍ

وكم ساءلتَ آلاف الكواكبِ

كم وقفتَ أمام هاويةٍ تقارنُ بينها حيناً

وبينَ قرارةِ الدّنيا

وكم ألقيتَ في بئرِ الطلاسم من دِلاءْ

ورجعت أكثرَ ريبةً

وأشَدَّ حيرَهْ.

***

ولم يُثنِكَ بساط الريح اللغوي، ولا أحصنةُ الخيال التي لولاها لأصيبت القصيدة بالركود وبالرضى الكسول الذي يُجافي الإبداع، عن القراءة أكثر فأكثر في سجلّ الهموم والمآزق الاجتماعية والسياسيّة، فرُحتَ تُعلن هويتّك القلميّة والوطنيّة، وتعلن خياراتك، فإذْ بالحرّية تقف منها في الصدارات، وتعقد مع الشعر حلفاً كيانيّاً لأنّ كلّاً منهما هو من طينَةِ الآخر، ولأنّ للحريّة جناحين يشيلان بها إلى مرتبة الشعر حتى ولو لبست رداءها القانوني...وللشعر مَنابض وأنفاس تخبو وتختنق إلّمْ تتّصل شهقاتُها بفضاء الحريّة. لا بابَ للحريّة أرحبَ من باب الشعر، ولا مرفأ للشعر أبهَجَ من مرفأ الحريّة. الحرّية حبيبةُ الشعراء وملهمتُهُم وحصنُهم ومروجُ أقلامهم وهويّتهم وإرثهم الوحيد الباقي عندما تهدّد كيانَهم، وكيانَ العُزَّلِ والطيّبين والحالمين وأصدقاء الحياة، كوابيس الجشعين والطائفيين وقصيري النظر وتجّار الوطنيّة. تقول:

جلدي هو الثوبُ الذي يكسو عظام قصيدتي في البردِ

فاقتسموهُ في فوضى الطوائف،

والمصارفِ، والمخاوفِ

ليس يعنيني سوى حرّيتي

هي وحدها:

ملكي الوحيدُ

هويّتي

فحوى الوجودِ،

بطانتي

ذهبُ الأصيل إذا تبجّحَ منْ تبجّحَ بالذّهبْ

صلةُ القرابةِ في موازينِ النَّسبْ.

***

ولم تُثنِكَ أعالي التخيّل... والتعبير هذا هو لك، وهو ممّا يعكس وجهاً من وجوه فنّك الشعري الذي يؤاخي ما بين المرتقي صعوداً والراسخ قاعاً... ما بينَ الحلم وظلاله... ما بين روح القصيدة من نحو وجسدها ورسالتها من نحوٍ آخر...

وأنتَ القائل:

مشى وحدَهُ فوقَ جسرِ الظّنونِ الثقيلْ

وحينَ تذكّرَ أشجارَ قريتِهِ

في الطريقِ الطويلْ

رمى نفسه من أعالي التخيّلِ

في قاعِ هذي القصيدَهْ!

لم تثنك أعالي التخيّل إذاً، عن تلمّس جراحِ الوطن، هنا وهناك، في دارتنا اللبنانيّة، وفي دارةِ العرب المفقودة والمنشودة، حتى لا نقول الموؤودة... في فلسطين ومدينتها المقاومة غزّة. قصيدتُكَ حولها في آخر الديوان تُقرأ في مُنعزَلٍ فتحرّكُ الشجون، وفي مجلسِ حُكّامٍ فينتابُهُ الخجل، وفي حَشدٍ فتزيد الثورة اشتعالاً.

ويحلو لي، قبل الختام، ان أقتطف منها بغير انتظام مقاطع متفرّقة:

سلامٌ لعينيكِ

ما دامت الريحُ أدرى بما في ضلوعِ الكلامْ

سآتيكِ

هذا مسيحُ الهوى حافياً يترنّحُ في شجوهِ

فوقَ غمرِ الشجَنْ...

سلامٌ لمنْ ذهبَتْ وحدها تتقصّى

رياحَ العَدَم...

سلامٌ لعينيكِ أيّتها الجدّةُ الصّابرهْ...

وما هَمَّ غزَّةَ وهي التي خرجَت وحدها ثائِرَهْ

ولم تتلَفّتْ إلى العربِ العابرَهْ

سلامٌ لها وحدها... وحدها...وحدها... لمن خرجتْ وحدها آخرَ الليلِ ثائرةً

ثائِرَهْ.

***

"فاصلةٌ بين امرأتين" لمحمد زينو شومان: إذا شئتَ عشقاً فَحَوِّلْ. وإذا شئتَ شعراً فحمِّلْ. وإذا شئتَ ثورةً فتَعَمّدْ. وإذا شئتَ حريّةً فَشُمَّ وتَزَوّدْ!

وإذا شئتَ موازنةً بين الإلتزام والإبداع فأنتَ قادمٌ إلى حيثُ ترافقا في ديوان واحد، وفي عجين تجربةٍ واحدة أخذ الالتزام منها بعض بهاء الإبداع، وأخذ الإبداع بعض حرارة الالتزام. النّار والنّور في قصيدة واحدة. الاشتعال والبهاء.

ويبقى "أنّ الالتزام والإبداع في الأدب كالنار والنّور في ظواهر الطبيعة. من مضارّ النّار أنّها قد تتعدّى الإشتعال إلى الإحراق. ومن مضارّ النّور أنّه قد يقف عند حدود البهاء يومَ نكون بحاجةٍ إلى الاشتعال". من مقال "بين الابداع والالتزام" منشور في كتاب " من الشائع إلى الأصيل"، لصاحب هذه الكلمة.

غالب غانم